المقتطف

الجزء الثاني من السنة العشرين

فبراير (شباط) سنة ١٨٩٦ الموافق ١٧ شعبان سنة ١٣١٣

رستم باشا

لاحد فضلاء اللبنانيين

ذكرت في الجزء الماضي ما كان من احوال لبنان إلى ان وقع اختيار الدول على رستم باشا والياً لهُ في اوائل سنة ١٨٧٣ فجاء لبنان ولهُ في قلبهِ هيبة ومكانة وقرىً فرمان توليتهِ في بعبدا مركز لبنان الشتوي ثم انتقل إلى بيت الدين المركز الصيفي . وكان الشيخ عيد ابو حاتم وكيل رئاسة مجلس الادارة[1] في عهد فرنقو باشا فابقاهُ رستم باشا في منصبهِ . وجاءهُ البعض من وجوه دير القمر يستأذنونهُ في اطلاق البنادق على اكمة تقابل بيت الدين ترحيباً برستم باشا فكلمهُ في ذلك فاذن لهم قائلاً احبُّ الروائح اليَّ رائحة البارود

واقام مدة غير طويلة يستطلع احوال البلاد السياسيَّة و يستكشف اخبار رجالها وآرائهم ثم ابدل البعض من كبار الموظفين غير مقيد بآراء رؤساء الاديان. فاستاء هؤلاء من ذلك لان نظام الجبل مؤسس على مراعاة اختلاف المذاهب. والوظائف الكبيرة فيهِ مقسومة بين الطوائف بحسب عددها ومكانتها حتى كأنَّ كل موظف نائب عن ابناء طائفتهِ في دوائر الحكومة لا خادم للبلاد كلها فلذلك كان رؤساء الاديان يرون انهُ من اللائق ان لم يكن من الواجب ان يستشيرهم المتصرف و يعمل برأيهم كلما اراد تبديلاً او تغييراً في ارباب المناصب الكبيرة كما كان في عهد فرنقو باشا

ومما فعلهُ من هذا القبيل انهُ عزل الامير ملحماً الارسلاني قائم مقام قضاء الشوف وابدلهُ بابن عمهِ الامير مصطفى وكان الشيخ عيد ابو حاتم وكيلهُ غير موافق لهذا الابدال

(١) مجلس الادارة في لبنان كمجلس النواب في بعض الممالك ورئيسهُ المتصرف نفسهُ

لان النصارى واجدون عَلَى ابي الامير مصطفى واخيهِ لما نالهم في ايامهما فلم يعبأ رستم باشا بذلك بل عزل الشيخ عيدًا ايضًا وولّى مكانهُ عمون بك عمون وهو من خيرة رجال لبنان واوسعهم صدرًا وانفذهم رأيًا واصدقهم عزيمة فجرت اعمال الجبل في عهدهِ احسن تجرى ثم جعلهُ وكيلهُ المطلق في ادارة لبنان لما سافر الى اوربا للاستحمام بمياهها المعدنيَّة

وحدث في تلك الاثناء خلاف بين اهالي زحلة من اعمال لبنان واهالي المعلقة من اعمال ولاية سورية فذهب عمون بك الى زحلة بنفسهِ وكان والي سورية قد بعث بالجنود خوفًا من تفاقم الفتنة فكتب اليهِ عمون بك تلغرافيًا ان يُرجع الجنود وهو يكفل ازالة الخلاف والاَّ فكل ما يحدث من دخول جنود الدولة الى حدود لبنان انما يطالَب بهِ الوالي فارجع الوالي الجنود وازال عمون بك الخلاف برأيهِ الصائب. وبلغ الباب العالي ذلك فابلغهُ رستم باشا. ويقال ان الصدر الاعظم قال لهُ في اثناء الحديث انك انبتَّ عنك نائبًا ساس الجبل احسن منك. فرجع رستم باشا إلَى لبنان واجدًا عَلَى عمون بك. ويتعذر على المؤرخ ان يثبت هذا الامر او ينفيهُ الاَّ ان الذين سمعوا رستم باشا يكلم عمون بك بعد رجوعهِ من الاستانة وجدوا في كلامهِ ما يشف عن ذلك واما الذين سمعوهُ يؤبنهُ بعد وفاتهِ فلا يرون لهذه التهمة وجهًا. ومهما يكن من الامر فثابتٌ ان عمون بك عاد من مقابلة رستم باشا مغتاظًا واصابهُ داء توفي بهِ في اليوم التالي في منزلهِ ببعبدا وحضر رستم باشا من بيروت حالاً مع فريق باشا قومندان موقع بيروت وامر ان يحتفل بتأتمهِ احتفالاً عظيمًا ومشى هو في ذلك المأتم امام الجمع ووراءهُ كبار الموظفين واعيان البلاد ووقف على قبرهِ وأبَّنهُ باللغة الفرنسويَّة وعدَّد مآثرهُ وقال "انهُ كان يدي اليمنى ومهما تفاقمت الخطوب كان يتبسم في وجهها العبوس فتحلُّ مشكلاتها وتزول معضلاتها"

وفي اليوم التالي استدعى المرحوم انطون بك عمون وقلدهُ منصب اخيهِ على ما بهِ من الحزن المفجع عليهِ فقبل ذلك المنصب على غير ارادتهِ وكان الحزن قد اخذ منهُ كل مأخذ فمرض واشتدَّ المرض عليهِ ففاضت روحهُ إلَى خالقها بعد مدة غير طويلة

وجرى رستم باشا في معاملتهِ لرؤساء الاديان على سنن الآداب لا يتجاوزها إلَى التملق والتزلف وكان وقورًا مهيبًا في حركاتهِ وسكناتهِ مؤثرًا على ذهن جليسهِ بكلامهِ لما يراهُ فيهِ الجليس من سعة الاطلاع وسمو الادراك فتهيبتهُ الناس والاكليروس ايضًا وزادهُ هيبة في اعين العموم انهُ كان عادلاً منصفًا لا يراعي في الحق احدًا بل ربما أُخذ عليهِ انهُ كان يزيد في الشدة انتصارًا للمظلوم من الظالم اذا كان هذا قويًا وذاك ضعيفًا حتى يتجاوز حدود الانصاف. وقد

عرف فيهِ المقرَّبون منهُ في ذلك العهد انهُ ميال من طبعهِ الى الشدة والاستبداد ولكنهم كانوا يردونهُ بحكمتهم الى التؤدة واللين فلم يظهر منهُ شيء في السنتين الاوليين من سني ولايتهِ مما ظهر بعدهما. وكان يطَّلع بنفسهِ عَلَى جميع اعمال المتصرفيَّة فيشتغل كل يوم وليلة عشر ساعات او اكثر لا يعرف الملل ولا التعب وكان كلامهُ عادة باللغة الفرنسويَّة الَّتي كان بارعًا فيها وكان يحسن ايضًا التركيَّة والانكليزيَّة والتليانيَّة لغتهُ الاصليَّة وكان لهُ بعض الالمام بلغات اخرى ومن جملتهما اللغة العربيَّة ولكنهُ لم يكن يتكلم بها اصلاً. ويزعم بعض المقربين منهُ ان امتناعهُ عن التكلم بالعربيَّة انما هو لشدة حرصهِ عَلَى وقار مجلسهِ حتى لا يكون غلطهُ في اللغة باعثًا عَلَى ضحك جليسهِ والحط من كرامتهِ كما كان يقع لداود باشا. فان داود باشا كان يميل إلَى التكلم بالعربيَّة مع ضعفهِ فيها فكان غلطهُ يضحك رجالهُ ولكنهُ كان يضحكهُ هو ايضًا فيزول تأثيرهُ من ذهن السامع

وكان شديد المراقبة عَلَى سير العمال فلم يظهر للرشوة اثر في مدة ولايتهِ. وارتاب مرة في كبير من ارباب المناصب فعزلهُ حالاً. وكان يراقب اعمال القضاء مراقبة خصوصيَّة حتى انهُ في كل مدة وجودهِ في لبنان لم يصدر حكم من محكمة الاستئناف في المواد الجنائيَّة خاصة الاَّ بعد اطلاعهِ عليهِ وعَلَى نتيجة التحقيق واستحسانهِ لها

وعاش عزبًا مع انهُ كان ذا ثروة واسعة وميل شديد إلَى معاشرة النساء حتى قيل انهُ لم يكن لاحد في لبنان سلطان عليهِ غير الجميلات الاَّ ان هذا السلطان لم يكن مطلقًا في جميع الامور اذ لم يقل احد قط انهُ ظلم احدًا او اضاع حقًّا مرضاة لخاطر هذه او تلك وانما قالوا وهم صادقون انهُ في الدور الثاني من مدة ولايتهِ عيَّن بعض الحكام في القضاءات اجابة لرجاء زوجة جميلة او ابنة لطيفة. وقد رأوا ان فتاة نالت لاخيها وظيفة قائم مقام قضاء ثم تزوجت فعُزِل اخوها بعد قليل وحلَّ زوجها محلهُ

ومن اعمالهِ السياسيَّة في لبنان انهُ آنس من مدحت باشا وهو يومئذٍ والي سوريَّة ميلاً إلى الخروج عَلَى الدولة وانشاء دولة عربيَّة في الشام فاعلم الدولة سرًّا فبادرت إلَى نقل مدحت باشا إلَى ولاية ازمير. والمطلعون عَلَى احوال مدحت باشا واحوال سوريَّة في ذلك الحين يقولون ان رستم باشا اتَّهمهُ هذه التهمة زورًا لا بقصد الايقاع بهِ بل تصديقًا لوشايات بعض الواشين وانخداعًا بسوء الظن. واتفق في بعض السنين ان الرعاع من اهالي بيروت تمادوا في التعدي على المترددين عليها من اهالي الجبل وتمادت حكومتهم في الاغضاء عن اعمالهم فكتب رستم باشا إلَى متصرف بيروت كتابًا قال لهُ فيهِ ان اهالي الجبل في هياج عظيم من

جراء هذه التعديات فاذا استرت رقام اهالي الجبل مرة واحدة على اهالي بيروت الانتقام منهم فانا غير مسئول . فلما وصل الكتاب الى متصرف بيروت حبّ من غفلته مذعورًا و بادر إلى اتخاذ الوسائل اللازمة لمنع كل تعدٍّ من هذا القبيل فانقطعت اسباب الشكوى حالاً واستتبّ الامن في المدينة

وقد كان في الامل ان يتنعم لبنان في زمن رستم باشا براحة طويلة غير ان الفتنة التي وقعت بينهُ وبين بعض الموارنة على اثر اختلافهِ مع المطران بطرس البستاني ومعاملتهِ لهُ بالشدة جعلت معظم مدتهِ مدة محنة و بلاء . اما اسباب الخلاف فطنيفة في الظاهر وترجع كلها إلى سبب مهم وهو استئثار رستم باشا بالسلطة والرأي على غير ما تعودهُ اكليروس الطائفة المارونية . وقد كان هذا السبب موجودًا في السنتين الاوليين من ولاية رستم باشا غير ان المرحوم ثمون بك كان مسموع الكلمة عندهُ وعند الاكليروس فعرف كيف يدفع اسباب الخصام مع المحافظة على كرامة الفريقين ولكنهُ توفي بعد سنة و بضعة شهور من مدة ولاية رستم باشا ولم يقم بعدهُ رجل مثلهُ في وكالة المتصرفية . ورأى المفسدون مساغًا لالقاء الفتن فظهر التنور واستحكم و اشتهر امرهُ بين الخاصة والعامة . ثم اتفق ان بعض اهل دير القمر عاصمة الجبل تقدموا الى المتصرف بعريضة يشكون فيها من انتقال مركز الحكومة في فصل الشتاء الى الساحل و يلتمسون بقاءهُ في مدينتهم صيف شتاء فلم يلتفت إلى طلبهم وقابلهم بالاحتقار . فشرعوا يقدمون عرائض الشكوى إلى الباب العالي والى قناصل الدول فاساءت الحكومة معاملتهم وزجت بعضهم في السجن بحجة انهم يهيجون الافكار . وظن رستم باشا ان المطران بطرس هو المحرك لهؤلاء الجماعة فاخذ يسعى في ابعادهِ عن كرسيهِ . غير ان النجاح في هذا الامر لم يكن ليتم بدون موافقة قنصلي فرنسا وانكلترا . وكان قنصل فرنسا وهو المسيو تريكو المعروف في مصر العوبة بيد رستم باشا مدة اقامتهِ في بر الشام فاستمالهُ هذا بحيلة دبّرها لهُ وهي انهُ دعاهُ لزيارتهِ في سراي بيت الدين حيث مقر المطران بطرس وكان يعلم ان المطران لن يأتي للسلام عليهِ وهو في ضيافة خصمهِ وان القنصل يعدُّ ذلك اهانة لهُ . وهكذا حدث فعلاً فاصبح القنصل الجنرال الفرنسوي اكبر مساعد للتصرف على مطران الموارنة خلافًا لتقاليد دولتهِ . ثم استمال قنصل جنرال انكلترا بحيلة اخرى وهي انهُ اوهمهُ ان الهيجان الذي احدثهُ المطران في الافكار قد تحول الى حركة دينية بين النصارى والدروز وان وقوع الفتنة قريب ان لم يُبعَد المطران عن كرسيهِ فاهتم قنصل انكلترا بالامر وتوجه الى بعض جهات الجبل من الاماكن المأهولة بالدروز وهو في الظاهر يريد السياحة وفي

الحقيقة يريد استكشاف الاحوال بنفسهِ. وكانت عمال الدسائس قد سبقتهُ فكان حيثما حلّ تأتيهِ مشايخ الدروز ووجوههم ويبثون اليهِ خوفهم من وقوع الفتنة بينهم وبين النصارى قائلين ان المطران بطرس هو الساعي اليها فعاد وقد اقتنع بصحة ما قيل لهُ. وكان رستم باشا قد مهد الامر في الاستانة فلما حصل على موافقة الدولتين صاحبتي الشأن الاول في لبنان صدر امر الباب العالي بابعاد المطران بطرس الى القدس الشريف

ورأت فرنسا بعد حين انها اخطأت في سياستها وان نصارى الجبل تفرّوا عنها فطلبت من الباب العالي ارجاع المطران الى كرسيهِ فاجابها الى ما طلبت ونالت الاذن ايضاً بان يكون رجوعهُ على بارجة فرنسويّة وبذلك اصلحت ما افسدتهُ سياسة فنصلها. ثم اخذت بعد ذلك تسعى في عزل رستم باشا وكان السبب في اهتمامها بامرهِ اخيراً كل الاهتمام ان حزب المطران بطرس توصل الى استمالة زوجة المارشال مكماهون وهو يومئذٍ رئيس الجمهوريّة الفرنسويّة ففازت ايضاً بذلك واستدعي رستم باشا الى الاستانة وهناك لم يجدهِ دفاعهُ عن نفسهِ شيئاً فتقرر عزلهُ وتعين نصري فرنقو ابن فرنقو باشا المتصرف السابق خلفاً لهُ الاّ انهُ حدث حينئذٍ امر لم يكن في الحسبان ذهبت معهُ كل الاماني ادراج الرياح وهو ان المارشال مكماهون سقط عن كرسي رئاسة الجمهوريّة فاوقفت الدولة امرها ونقضت ما كانت ابرمت وعاد رستم باشا الى الجبل كما كان واتم مدتهُ الباقية

الاّ ان تلك المدة الاخيرة كانت عليهِ مدة تعب مستمر لان جانباً كبيراً من اهالي الجبل استمر منحرفاً عنهُ كارهاً لهُ وكان هو نفسهُ شديد الانفعال حقوداً فاصبح لا همّ لهُ الاّ الانتقام فتغيرت اخلاقهُ واشتدت وطأتهُ وبعد ان كان حاكماً للجبل عموماً اصبح رئيس حزب متشيّعاً وشغلتهُ الخصومة عن الالتفات الى ترقية البلاد والاخذ باسباب العمران فلا نشط صناعة ولا اوجد تجارة ولا جدّد زراعة ولا اجرى تحسيناً يذكر في طرق النقل والمواصلات مع انهُ كان اقدر الولاة على ترقية البلاد وزيادة ثروتها بما أوتيهِ من قوة الارادة وسمو الادراك. واضرّ لبنان من وجهٍ ادبي ضرراً يزيد على كل المنافع التي جناها منهُ ومن سلفيهِ وهو انهُ قيّد مجلس ادارة لبنان باستخدام اقارب اعضائهِ فصار عضو مجلس الادارة الحر مقيداً بقيود من حديد لان اقاربهُ في وظائف أخرى يسهل عزلهم منها. واذلّ وجوه اللبنانيين واستخدم امراءهم ونخبة ابطالهم حرساً لهُ يجرون على جيادهم امام مركبتهِ ووراءها. فلما فتحت لهم سُبُل الرشوة في عهد خلفهِ واصه باشا ولجوها غير مستنكفين. وحرم لبنان من مال كثير كانت تدفعهُ اليهِ الدولة فساء حالهُ واضطرّ كثيرون من ابنائهِ ان

يهجروهُ الى اميركا وغيرها من البلدان السحيقة وغايتهُ من كل ذلك نسخ امتيازاتهِ وجعلهُ مثل سائر ولايات الدولة . هٰذا شأن الرجل في لبنان وسجان من تفرَّد بالكمال

اما شأنهُ بعد ذلك، فهو انهُ استراح مدة من عناء الاعمال اهتمامًا بصحتهِ ثم عُين سفيرًا للدولة في بلاد الانكليز سنة ١٨٨٥ بعد موزورس باشا فكان " خير واسطة بين الحكومة العثمانيَّة والحكومة الانكليزيَّة " كما قال فيهِ اللورد سلسبري . وكانت الحكومة الانكليزيَّة تثق بهِ كما كان يثق بهِ الباب العالي. وقد قالت جريدة التيمس فيهِ يوم وفاتهِ "انهُ ولدَ في الاستانة من والدين ايطاليين ودخل خدمة الحكومة العثمانيَّة صغيرًا وسمي حينئذٍ رستم وعيّن سكرترًا لنجيب باشا لما أُرسل لاخضاع علي قرمانلي باشا والي طرابلس الغرب سنة ١٨٣٦ وكان قد خرج عن طاعة الدولة . ولما عين فؤاد افندي (وهو فؤاد باشا المشهور) مأمورًا خاصًّا في بخارست سنة ١٨٤٨ عيّن صاحب الترجمة معاونًا لهُ ولما عاد الى الاستانة جعل سكرترًا عامًّا لنظارة الخارجيَّة وهو اول من انشأ فيها قلم المخابرات الاجنبيَّة . وعين وكيلاً سياسيًّا في تورين سنة ١٨٥٦ فاقام في ايطاليا اربع عشرة سنة ورقي الى رتبة سفير . وارسل الى رومية سنة ١٨٧٠ بمأموريَّة خاصة وقت التئام المجمع الفاتيكاني وبعد اشهر قليلة عين سفيرًا في بطرسبرج فاقام فيها ثلاث سنوات ومن ثم نقل الى لبنان متصرفًا لهُ وقد كان يعلم معايب الحكومة العثمانيَّة بنوع عام ومعايب حصر السلطة في المابين بنوع خاص. والناظر الى هٰذا الشيخ الوقور الذي قضى عمرهُ في خدمة الدولة العثمانيَّة لا يسعهُ الاَّ ان يرقَّ لهُ ويعترف بشهامتهِ لانهُ يراهُ مقتنعًا ان كل اجتهاد في خدمة الدولة قد ضاع سدًى ومع ذلك فامانتهُ للسلطانِ تمنعهُ من ان يعترف بذلك علانية . ولم يكن يخفى عليهِ شيء من احوال البلاد التي اتخذها وطنًا لهُ ولكنهُ لم يكن يسمح ان تقال عليها كلمة في مجلسهِ وبقي الى آخر دقيقة من حياتهِ يجاهد جهاد الابطال في الدفاع عما يعلم علم اليقين ان الدفاع عنهُ امسى ضربًا من العبث "

وتوفي في دار السفارة العثمانيَّة بمدينة لندن الساعة الثالثة صباحًا من اليوم العشرين من شهر نوفمبر الماضي (ت ١) ودفن فيها باحتفال عظيم ولم تبلغ تركتهُ سوى اربعة عشر الف جنيه عَلى تأنقهِ في المعيشة مع ان تركة المغفور موزورس باشا بلغت مئتي الف جنيه